التشيع في الشعر المصري
في عصر الأيوبيين والمماليك

للدكتور محمد كامل حسين

(مفصلة من مجلة كلية الآداب ، المجلد
الخامس عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٣

مطبعة جامعة فؤاد الأول
١٩٥٣



كلية الآداب

التشيع فى الشعر المصرى
فى عصر الأيوبيين والمماليك

للدكتور محمد كامل حسين

مفصلة من مجلة كلية الآداب ، المجلد
الخامس عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٣

مطبعة جامعة فؤاد الأول
١٩٥٣

التشيع فى الشعر المصرى
فى عصر الأيوبيين والمماليك

للدكتور محمد كامل حسين

(١) لمحة عن التشيع فى مصر الى سقوط الدولة الفاطمية :

فى بحث لنا تتبعنا فكرة التشيع فى مصر الإسلامية حتى دخل الفاطميون مصر سنة ٣٥٧ هـ [١] ، وتلخص هذه الفكرة فى أن أكثر مسلمى مصر فى هذا العهد كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأن قليلا منهم كانوا يدينون بالتشيع ، ولكن هؤلاء الشيعة من المصريين لم يشتركوا اشتراكا إيجابياً فى حركات فرق الشيعة التى ظهرت فى الأقطار الاسلامية الأخرى ، إذ لم يذكر مؤرخو مصر شيئاً عن صدى حركات الشيعة فى مصر سوى حركة محمد النفس الزكية سنة ١٤٤ هـ ، ولكن هذه الحركة سرعان ما خمد أوارها ، ولم تظهر لها فى مصر نتائج سياسية أو مذهبية . ولم يكن للمصريين فى هذا العصر رأى شيعي خاص بهم ، ولم تظهر لهم فلسفة شيعية مثل هذه الفلسفات التى نراها عند فرق الشيعة فى العراق وفارس والشام ، إنما كان التشيع فى مصر يكاد ينحصر فى حب أهل البيت ، وهذا رأى كثير من المسلمين غير المتطرفين ، فعلماء أهل السنة فى مصر وفى غير مصر كانوا يحبون أهل البيت ، وعندنا الشافعى والنسائى المحدث وغيرهما دليل على ذلك ، بل من العلماء من كان يفضل على بن أبى طالب على الشيخين ، وفى مصر

(١) M. Kamil Hussein : Shi'ism in Egypt befor ethe Fatimids (J. R. A. Miscellany Vol. I. p. 73. 1948

وكتاب فى أدب مصر الفاطمية ص ٨ مقدمة (طبع دار الفكر العربى) .

كان محمد بن عبد الله بن عبد الحكم رئيس المدرسة المالكية وابن الحداد القاضي وغيرهما كانوا يفضلون علياً على أبي بكر وعمر [1]

ومع ذلك لم ينحرف هؤلاء الأعلام عن مذهب أهل السنة والجماعة .

وهكذا عاش المصريون بعيدين عن التيارات والمعتقدات الشيعية التي كثرت في غير مصر من البلدان ، حتى ظهر عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، وكانت دعوته دخلت مصر من قبل على أيدي بعض دعاته من أمثال فيروز وأبي علي وأبي جعفر بن نصر وغيرهم [2] ، واعتنق بعض المصريين هذه الدعوة سراً وكاتبوا المهدي لفتح مصر ، فأرسل المهدي هذه الحملات المتعددة التي ذكرها المؤرخون ، وكان قواد هذه الحملات يكاتبون إخوانهم من المصريين لتأييدهم والعمل على نجاح حملاتهم ، وحفظ عريب بن سعد مقطوعة شعرية من قول أبي القاسم بن المهدي (القائم بأمر الله الخليفة الفاطمي الثاني) يخاطب بها جماعة من المصريين الذين استجابوا لدعوة الفاطميين [3] ، ومع ذلك لم يذكر المؤرخون شيئاً عن تحرك المصريين لتأييد حملات الفاطميين ، ولم نعرف أن عقائد الفاطميين انتشرت في مصر انتشاراً كان له أثر في الحياة الفكرية ، فقد ظل أكثر المصريين على مذهب أهل السنة والجماعة يختلفون فيما بينهم بين آراء مالك والشافعي ، وقل أن نجد بينهم من كان على مذهب أبي حنيفة أو من يقول بمقالات المعتزلة أو الشيعة .

ولما فتح جوهر الكاتب أحد قواد المعز لدين الله الفاطمي مصر سنة ٣٥٨ هـ كتب أماناً للمصريين ، ونص على أن يترك المصريين حريتهم في اختيار العقيدة التي يرضونها لأنفسهم ، وأن لا يحملهم كرهاً على تغيير مذهبهم أو دينهم الذي دانوا الله به [4] ، ولكن الفاطميين لم يحترموا هذا الأمان

(١) ابن حجر العسقلاني : رفع الاصر عن قضاة مصر ص ٩٩

(٢) ابن زولاق : سيرة سيبويه المصري ص ٤٠ وجعفر بن منصور : الفترات والقرانات (نسخة خطية بمكتبتي) .

(٣) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ص ٤٢ (طبع المطبعة الحسينية بمصر) .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٤٨ — ١٥٣ (طبع دار الفكر العربي) .

فقد قامت دولتهم على أساس عقيدتهم المذهبية فكان من الطبيعي أن يعملوا على صبغ البلاد التي تخضع لحكمهم بهذه الصبغة المذهبية التي تمايزوا بها، فلا غرابة أن رأينا دعاتهم ينشطون في كل البلاد وفي كل المجتمعات يكالبون أصحاب المذاهب الأخرى ويعقدون مجالس الحكمة التأويلية ويأخذون العهد على كل مستجيب، واتخذوا للدعوة لمذهبهم وسائل وتدابير مختلفة، فاستجاب كثير من المصريين إلى دعوتهم وعقيدتهم وظل بعض المصريين على عقيدته ومذهبه، ولكن عقائد الفاطميين شغلت أذهان المصريين طوال الحكم الفاطمي حتى تأثر بها المصريون جميعاً سواء من دخل منهم في الدعوة أو من ظل مستمسكا بمذهب أهل السنة والجماعة، حتى خيل إلى كثير من الباحثين أن المصريين جميعاً أصبحوا يتمذهبون بعقيدة الفاطميين ويتبعون التقاليد الفاطمية، أي أن مصر قد طبعت بطابع العقائد الفاطمية طوال السنين التي خضعت فيها لحكم الفاطميين.

وبالرغم من أن نفوذ العقائد الفاطمية كان متغلغلا في مصر فان هناك عدة عوامل عملت على إضعاف هذه العقيدة في نفوس المصريين، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن هذا الضعف بدأ في عهد الحاكم بأمر الله (المتوفى حوالى سنة ٤١١ هـ) ولا سيما بعد ان وفد على مصر دعاة تأليه الحاكم أمثال الدرزي وحمزة والأخرم الفرغاني [١]، ونحن نعلم أن المصريين ثاروا على هؤلاء الدعاة، وقتلوا الأخرم سنة ٤٠٨ هـ، وأن الدرزي وحمزة هربا، وأن الحاكم انتقم من المصريين بحرق الفسطاط وقتل عدداً كبيراً من المصريين، وكانت خاتمة حياة الحاكم نهاية لهذه الدعوة الالحادية الجريئة في مصر. ولكن كان من نتائجها أن بدأ الناس يشكون في عقيدة الفاطميين وفي كل ما قاله الدعاة عن الامامة والأئمة، وظهرت هذه النتيجة بشكل لافت في عهد المستنصر بالله (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) ولا سيما في تلك السنوات من حكمه التي ضعفت فيها الحياة الاقتصادية وبلغت درجة من الانحطاط جعلت الناس

(١) راجع الرسالة الواعظة لأحمد حميد الدين الكرماني نشر محمد كامل حسين (مجلة كلية الآداب عدد مايو سنة ١٩٥٢).

لا يرعون للامام حرمة ولا للعقيدة وزنا ، فضعفت ثقة المصريين فى عقيدة الامام المعصوم وأنه الواسطة بين الله والخلق . وفى عقيدة النص على ولاية العهد ، وهى العقيدة التى كانت أساس مذهب الاسماعيلية وسببا فى انقسام الشيعة الامامية إلى إسماعيلية وموسوية ، فتهاون المصريون بهذه العقيدة مما سهل الأمر للافضل بن بدر الجمالى فى تحويل الامامة بعد المستنصر إلى المستعلى وحرم منها صاحب النص نزار بن المستنصر ، فانقسمت الدعوة إلى فرعين رئيسيين هما : الاسماعيلية النزارية . التى عرفت بالاسماعيلية الشرقية أحيانا ، وبالاسماعيلية الحشيشية أحيانا أخرى ويعرفون الآن بالخوجه أو الأغاخانية ، وإمامهم الآن هو أغا خان المعروف . والفرع الآخر هو الاسماعيلية المستعلية أو الاسماعيلية الغربية وهى التى ظلت فى مصر واليمن ، فكان هذا الانفصال من عوامل ضعف العقيدة وزعزعتها من نفوس المصريين . أضف إلى ذلك أنه لما قتل الآمر بأحكام الله سنة ٥٢٤ هـ ولم يكن له ولد ، ذهب الصليحيون أصحاب الدعوة فى اليمن إلى أن الآمر لما قتل كانت إحدى جهاته حاملا ، وأنها أنجبت ولداً له هو الطيب بن الآمر ، وأن الامامة للطيب هذا ، وأنه دخل الستر وجعل الملكة الحرة الصليحية حجته وصاحبة الستر عليه ، فوجد بذلك فرع جديد للاسماعيلية وعرفت هذه الدعوة بالدعوة الطيبية ولا تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم وأتباع هذه الدعوة يعرفون الآن بالبهرة ، وداعيهم المطلق هو طاهر سيف الدين ، وإمامهم من نسل الطيب بن الآمر لا يزال فى دور الستر ، أما فى مصر فلم يعترف المصريون بشىء اسمه الطيب بن الآمر ، وأقيم عبد المجيد بن محمد بن المستنصر المعروف بالحافظ لدين الله كفيلا للامام المنتظر فى أول الأمر ثم اعترف بامامته بعد ذلك . فكان الاعتراف بامامته خارجا عن أسس الامامة عند الاسماعيلية ، إذ الامامة عندهم لا تكون إلا فى الأعقاب[1] وأن الامام ينص على حجته وولى عهده من أبنائه ، ولا تنتقل الامامة من أخ إلى أخ بل لا بد أن تكون من أب إلى ابن ، والحافظ لم يكن ابنا لامام فليس له حق فى الامامة ، ومع ذلك اعترف به المصريون إماماً لهم تهاونا منهم بالعقيدة

(١) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٥ (نسخة خطية بمكتبتى) والمجالس والمسايرات ورقة ٧٩ (نسخة خطية بمكتبتى) .

الاسماعيلية مما أدى إلى زيادة استخفافهم بالفاطميين وعقائدهم، وإلى تزعزعها من نفوس كثير ممن استجابوا لها من المصريين.

وبلغ التهاون حداً بعيداً حين نرى الوزير الفاطمى أبا الحسن بن السلار المنعوت بالملك العادل سيف الدين الذى تولى الوزارة للظافر سنة ٥٤٤ هـ متظاهر بالتحدث على مذهب الشافعى، ولما وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفى إلى الاسكندرية واتخذها دار مقامه احتفى به العادل ابن السلار وعمر له هناك مدرسة فوض تدريسها إليه، ولم يكن للشافعيين بالاسكندرية سواها[1] وهو عمل لا يقدم عليه الوزير إلا إذا كان على ثقة تامة أن أتباع العقيدة الفاطمية لا يستطيعون مقاومته، وذلك لضعفهم ولتزعزع العقيدة من نفوس أكثر المصريين، وهناك قصة عمارة اليمنى مع سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء صهر الملك الصالح طلائع بن رزيك، وهى إن دلت على شىء فانما تدل على أن الشك فى العقيدة الفاطمية دب فى نفس سيف الدين[2]، وقصة أخرى ذكرها عمارة أيضاً ترينا كيف كان الداعى ابن عبد القوى والوزير شاور وابنه الكامل يفكرون فى تسيير الدعوة لولدى صاحب عدن ونقل مركز الدعوة الى عدن، فاستشاروا عمارة فى ذلك فقال: «إن أهل اليمن إنما يبعثون لكم الهدايا والتحف والنجاوى ويتولونكم لأجل الدعوة، فاذا تبرعتم بها فقد تم حرمتها»[3] فهذه كلها أدلة نسوقها على ماذهب إليه عن مدى ضعف العقيدة فى نفوس أكثر المصريين فى أواخر أيام الفاطميين، حتى فى نفوس بعض الدعاة وكبار رجال الدولة.

(٢) التشيع بمصر الفاطميين:

ومع هذا الضعف الذى حل بمذهب الفاطميين فى مصر، فقد كان مظهر التشيع واضحا بين بعض المصريين، وليس أدل على ذلك من تلك الصورة

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٠ (طبع المطبعة اليمنية).
(٢) عمارة اليمنى: النكت العصرية ص ١٢٦ (طبع سالون).
(٣) نفس المرجع السابق ص ٩٢

القوية التي رسمها القاضي الفاضل في إحدى رسائله ، يصور فيها مدى تظاهر المصريين بالتشيع وبالتقاليد الفاطمية فقد قال :

إن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة ، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماه فانها متحاماة ، وتلك البدع بها على مايعلم . وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الاسلام ويحكم ، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم ، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله وتعظم وتفخم ، فتعالى الله عن شبه العباد ، وويل لمن غره تقلب الذين كفروا في البلاد . . . ووصلنا البلاد ، وبها أجناد عددهم كثير وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة ، وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الاسلام أقدر منهم على حرب الكفر ، والحيلة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر . وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف كلهم أغنام أعجام ، إن هم إلا كالأنعام لا يعرفون رباً إلا ساكن قصره ، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه وامتثال أمره ، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية ، موضوعة عنهم الجزية ، كانت لهم شوكة وشكة وحمة وحمية ، ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله ، وتصيب القلوب مخاتله ، ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل ، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل ، ودولة قد كبر نملها الصغير ، ولم يعرف فيها غير الكبير ، ومهابة تمنع ما يكنه الضمير ، فكيف بخطوات التدبير ، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائرة ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل ، وكفر سمي بغير اسمه ، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه ، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ، ونتحيفهم تحيف الليل والنهار ، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير ، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير ولطيف توصل ، ما كان من صلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير [1] . . .

(1) أبو شامه : الروضتين ج ١ ص ٢٤١

هذه صورة لحالة الدعوة الفاطمية فى مصر حين قام صلاح الدين الأيوبى بمحوها من البلاد ، رسم هذه الصورة رجل عاش فى بلاط الفاطميين فى أواخر أيامهم ، فقد كان كاتباً من كتابهم ، مطلعاً على أسرارهم ، ثم انقلب عليهم واستوزر لصلاح الدين فكان عضده الأيمن فى القضاء على الفاطميين ، ولسنا فى مجال الحديث عن القاضى الفاضل ، وإنما الذى يهمنا فى وصفه أن العقيدة الاسماعيلية قد خالطت من المصريين اللحم والدم ، وأنه دبر تدابير مختلفة للقضاء على الفاطميين وكان نجاحه من المقادير ، والذى يقرأ هذه الرسالة للقاضى الفاضل يروعه وصف القاضى الفاضل بتغلغل العقيدة الفاطمية فى المصريين بينما نذهب نحن إلى أن العقيدة ضعفت عند المصريين ، فالقاضى الفاضل قد وصف القصر والحاشية من كبار رجال الدولة من دعاة وكتاب ، وهؤلاء بحكم صلتهم بالامام الفاطمى كانوا على نحو ما ذكره القاضى الفاضل ، ثم إن القاضى الفاضل قد بالغ فى تصويره هذا ليضفى على ما قام به صلاح الدين الأيوبى من تقويض أركان الدولة الفاطمية قيمة وخطراً ، ولم يتحدث القاضى الفاضل عن الشعب نفسه ، فالشعب المصرى كان موزع الهوى بين هذه التقاليد الفاطمية التى ورثها عن قرنين من الزمان ، وبين ما طرأ على هذه العقيدة الفاطمية من ضعف ، لهذا تحول عدد من شيعة مصر إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، وبقى عدد آخر على تشيعه وتأثره بالفاطميين ، ولا سبيل لصلاح الدين الأيوبى ولا لغير صلاح الدين إلى انتزاع عقيدة من العقائد بحد السيف أو بالتدابير التى أشار إليها القاضى الفاضل فى رسالته السابقة ، فليس من السهل اليسير أن يقتلع دين من الأديان بمجرد تغيير النظام السياسى فى بلد من البلاد ، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة وإلى تدابير ليست هى من تدابير القوة والبطش حسب وإذا نظرنا إلى الذين استجابوا لصلاح الدين وناصروه فسنجد أن جلهم بين هؤلاء الذين لم يعتنقوا المذهب الاسماعيلى ولم يتحولوا عن عقيدتهم . عقيدة أهل السنة والجماعة، وثبتوا أمام دعاة الاسماعيلية وسلطان أئمتهم ، وبين هؤلاء الذين استجابوا إلى مذهب الاسماعيلية ولكن ضعفت عقيدتهم من نفوسهم لما رأوا أن القائمين على هذه العقيدة انحرفوا عنها

ولم يعملوا بأصولها ولا بفروعها . فتحول هؤلاء عن اسماعيليتهم وهم مطمئنون بعد أن دب الشك فى نفوسهم . وفريق ثالث من الذين ساعدوا صلاح الدين فى قطع الخطبة للفاطميين وتحويلها إلى العباسيين هم هؤلاء الذين يعرفون بأنهم يأكلون على كل الموائد ، ولا يعملون إلا لأنفسهم ، ويحاولون الافادة من كل تغيير فهم أتباع كل جديد لا لشىء سوى الافادة من النظم الجديدة ، وكثير من رجال الدولة الفاطمية أصبحوا من ألد أعدائها فى عصر الأيوبيين . ومن هؤلاء القاضى الفاضل نفسه والقاضى ابن سناء الملك ، والقاضى ابن الزبير وابنا القاضى الجليس ابن الحباب وغيرهم . أما الشعب ولا سيا طبقة الجهال فقد ظلوا على اسماعيليتهم .

هكذا انقسم المصريون بين مؤيد لصلاح الدين وحركته فى إبادة التشيع من مصر ، وبين مستمسك بتشيعه يندب أيام الفاطميين ويبكى على أئمته ، وقد حاول هؤلاء مراراً أن يعيدوا الخلافة الفاطمية ، فكان يظهر من حين لآخر من كان يدعو فى البلاد إلى الفاطميين فيلتف الناس حوله ، وتخف جنود الأيوبيين للقضاء على حركته . فمن ذلك ما كان فى سنة ٥٦٩ هـ إذ قام بعض رجال الدولة الفاطمية برياسة هبة الله بن كامل قاضى القضاة وداعى الدعاة بحركة لإعادة ملك الفاطميين فى مصر ، وأسهم فى هذه الحركة عمارة اليمنى بالرغم من تسننه ، والداعى عبد الجبار بن اسماعيل بن عبد القوى وغيرهما وامتدت هذه الثورة إلى حد أنهم كاتبوا الصليبيين وشيخ الجبل « راشد الدين سنان » زعيم الاسماعيلية النزارية فى الشام . ولكن هذه الحركة فشلت وقبض على رؤسائها وقتلوا صلباً ، كذلك نقول عن حركة الداعى قديد القفاص بالاسكندرية وهى الحركة التى وصفها القاضى الفاضل فى إحدى رسائله بقوله : « وما يطرف به المولى أن ثغر الاسكندرية على عموم مذهب السنة فيه ، أطلع البحث أن فيه داعية خبيثاً أمره ، محتقراً شخصه ، عظيما كفره يسمى قديد القفاص ، وأن المذكور مع خموله فى الديار المصرية قد فشت فى الشام دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فتنته ، وأن أرباب المعايش فيه يحملون إليه جزءاً من كسبهم ، والنسوان يبعثن إليه شطراً

وافيا من أموالهن . ووجدت في منزله بالاسكندرية عند القبض له والهجوم عليه كتباً مجردة فيها خلع العذار وصريح الكفر الذى ما عنه اعتذار ، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعر منه الجلود ، وبالجملة فقد الاسلام أمره ، وحاق به مكره وصرعه كفره » [١] .

ونذكر ثورة كنز الدولة بن المتوج أمير أسوان الذى جمع حوله عددا كبيراً من السودان وحاول أن يعيد الأمر للفاطميين فتقدم بجنوده حتى بلغ مدينة قوص ، فسار إليه الملك العادل أخو صلاح الدين — فى جيش كثيف سنة ٥٧٠ هـ فهزم كنز الدولة وهرب رجاله إلي بلاد النوبة [٢] فطاردهم العادل وشتت شملهم ، فاستقروا فى السودان ولم يعودوا إلى أقليم أسوان إلا بعد سنة ٧٩٠ هـ [٣] . وكان ابن المتوج مقصد الشعراء فى عصره ، اتصل به عدد كبير نذكر منهم أحمد بن محمد الأسوانى الفقيه البولاقى [٤] ، وعبد الله بن أحمد بن سلامه الفقيه [٥] ، وسهل الأسوانى [٦] ، وعبد الله بن محمد بن زريق [٧] وغيرهم من الشعراء ذكرهم الادفوى فى كتابه الطالع السعيد ومع ذلك لم تصلنا أشعارهم التى أنشدوها فى ثورته ضد الأيوبيين التى أراد بها إعادة الدولة الفاطمية ، ولكن وصلتنا رسالة بقلم القاضى الفاضل فى ذكر انتصار جيوش الأيوبيين وفتح بعض بلاد النوبة أرسلها إلى الخليفة المستضىء العباسى عن صلاح الدين ونجد هذه الرسالة فى صبح الأعشى [٨] فليرجع إليها الباحثون.

ويروى ابن الأثير أن جماعة من الشيعة فى مصر ثاروا سنة ٥٨٤ هـ بالقاهرة ونادوا ليلا بشعار الشيعة : يا آل على . ياآل على . وسلكوا الدروب

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٢٠
(٢) المقريزى : الخطط ج١ ص ٣٢٠ وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٤
(٣) نفس المرجع السابق .
(٤) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٦٦
(٥) نفس المرجع ص ١٤٤
(٦) نفس المرجع ص ١٣٤
(٧) نفس المرجع ص ١٤٦
(٨) صبح الاعشى ج ٦ ص ٥٠٦

ينادون الناس ، ظناً منهم أن أهل البلد يلبون دعوتهم ويخرجون معهم لاعادة الدولة العلوية ، وإخراج من كان محبوساً فى القصر من أسرة الفاطميين ؛ ولكن لم يلتفت أحد من المصريين إليهم ولا أعارهم سمعه ، فلما رأوا ذلك تفرقوا . ثم أخذوا ، وكتب بذلك إلى صلاح الدين فأهمه أمرهم وأزعجه [1] .

وفى أواخر القرن السابع فى سنة ٦٩٧ ظهر شخص فى الصعيد ادعى أنه داود بن العاضد الفاطمى ، ودعى لنفسه فاستجاب له عدد كبير من أهل الصعيد ومدحه بعض الشعراء على نحو ما سنذكر بعد ، ولكن حركته فشلت .

نتبين من ذلك أن الأيوبيين لم يستطيعوا أن ينتزعوا العقيدة الفاطمية الاسماعيلية من نفوس جميع المصريين دفعة واحدة ، وأن التشيع ظل فى مصر بعد زوال الدولة الفاطمية وكان بعض المصريين يحنون إلى عهد الفاطميين ، ويذهب صاحب الطالع السعيد إلى أن بلاداً بأكلها فى مصر كانت تدين بالتشيع حتى القرن الثامن من قرون الهجرة ، ففى حديثه عن أدفو قال : كان التشيع بها فاشيا ، وأهلها طائفتان الاسماعيلية والامامية ، ثم ضعف حتى لا يكاد يتميز به إلا أشخاص قليلة [2] .

ويقول عن اسفون : بلدة معروفة بالتشيع البشع ، لكنه خف بها وقل [3] ، وعن إسنا قال : وكان التشيع بها فاشياً ، والرفض بها ماشياً فخف حتى خف [4] ، وفى حديثه عن بهاء الدين القفطى هبة الله بن عبد الله ابن سيد الكل حاكم إسنا ومدرس مدرستها المتوفى سنة ٦٩٧ هـ قال : إنه فتح إسنا ، فانه كان بها التشيع ؛ فما زال يجتهد فى إخماده وإقامة الأدلة على بطلانه وصنف فى ذلك كتابا سماه « النصائح المفترضة فى فضائح الرفضة » وهموا بقتله فحماه الله منهم [5] . وفى حديثه عن ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٦٦٧ هـ

(١) ابن الأثير الكامل : حوادث سنة ٥٨٤ هـ .
(٢) الأدفوى : الطالع السعيد ص ١٦
(٣) الادفوى : الطالع السعيد ص ١٧
(٤) نفس المصدر السابق ص ١٧
(٥) نفس المصدر ص ٢٩٧

قال : أتى إلى الصعيد فى طالع لأهله سعيد ، فتمت عليهم ، بركاته وعمتهم علومه ودعواته ، وكان مذهب الشيعة فاشياً فى ذلك الاقليم ، فأجرى مذهب السنة على أسلوب حكيم ، وزال الرفض وانجاب ، وثبت الحق حتى لم يبق فيه شك ولا ارتياب [١] .

وحفظ أسماء عدد من العلماء والأدباء من رجال القرنين السابع والثامن من قرون الهجرة كانوا يدينون بالتشيع نذكر منهم عبد القادر بن مهذب الادفوى — ابن عم صاحب الطالع السعيد — وقيل انه رحل إلى قوص للاشتغال بالفقه فحفظ أكثر التنبيه ، وكان اسماعيلى المذهب مشتغلا بكتاب الدعائم تصنيف القاضى النعمان بن محمد متفقهاً فيه ، وكان فيلسوفاً يقرأ الفلسفة ويحفظ من كتاب زجر النفس وكتاب اثولوجيا وكتاب التفاحة المنسوب إلى أرسطو كثيراً وتوفى سنة ٧٢٥ هـ [٢] . وكان عبد الملك بن الأعز بن عمران الذى أخذ النحو و الأدب عن الشمسى الرومى متهما بالتشيع مشهوراً به وتوفى سنة ٧٠٧ هـ [٣] . وأن الشاعر المحدث محمد بن محمد بن عيسى الشيبانى النصيبينى كان متشيعاً [٤] . أما القاضى جلال الدين الحسن بن منصور المعروف بابن شواق المتوفى سنة ٧٠٦ هـ فقد كان يتشيع ويدرس مذهب الشيعة ثم قبض عليه ، ورحل إلى القاهرة بعد أن صودرت أمواله [٥] . ويذكر ابن حجر أن على بن المظفر بن ابراهيم الوادعى الكندى المتوفى سنة ٧١٦ هـ وكان كاتبا فى ديوان الانشاء كان يتشيع [٦] .

ويطول بنا الأمر لو حصرنا فى هذا البحث القصير من كان يعرف بالتشيع من علماء وأدباء مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك ، وهذا يدل على أن العقيدة الشيعية لم تقتلع من نفوس المصريين جميعاً ، بل ظلت عقيدة بعض

(١) نفس المصدر ص ٢٢٩
(٢) نفس المصدر ص ١٧٦
(٣) نفس المصدر ص ١٨١
(٤) نفس المصدر ص ٣٥٤
(٥) الادفوى : الطالع السعيد ص ١٧٦
(٦) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٣٠

المصريين بالرغم مما أصاب الشيعة فى مصر فى ذلك العصر من ألوان الاضطهاد وبالرغم مما قام به علماء جمهور أهل السنة والجماعة من جهود متواصلة فى تعليم المصريين علومهم وآرائهم بفضل تلك المدارس المذهبية السنية التى انتشرت فى مصر انتشاراً عظيما ، فكانت هذه المدارس هى السبب الأول فى تحول الشيعة فى مصر إلى رأى الجماعة والسنة وسنبين ذلك فى بحث مستقل إن شاء الله .

(٣) شعر المتشيعين :

كان بين بقايا الشيعة فى مصر عدد كبير من الشعراء ، حفظت بعض قصائدهم التى يظهر فيها أثر العقيدة الشيعية التى دانوا بها . نذكر من هؤلاء الشعراء أبا العباس شهاب الدين احمد بن عبد الملك العزازى [٦٣٤—٧١٠ هـ] التاجر بقيسارية جهاركس بالقاهرة [١] . كان أديبا بارعاً ولاسيما فى نظم الموشحات وكان يتشيع ويظهر تشيعه فى شعره فمن ذلك قوله :

إذا أنا لم أبت دامى الأماقى عليه ودانى الكمد القصى
وأمسى فيه ذا وسن ضنين وأصبح فيه ذا شجن شجي
فلا سارت بقافية ركابى ولا عادت بناجحة مطى
وإلا لا اعتقدت ولا على ولا أضمرت حب بنى على
أناس أدركوا أمد المعالى ونالوا رتبة الشرف العلى
هم سحب الندى يوم العطايا ويوم الفخر أقمار الندى
إذا كررت ذكرهم كأنى فتقت لطائم المسك الزكى
أبوهم ذو الجلالة من قريش وذو النسب الصحيح من النبي
وناصر دينه سراً وجهراً خلافاً للفريق الجاهلى
وقاهر كل كفار عنيد وقاتل كل جبار عتى
وضارب يوم صفين وبدر أعالى هامة البطل الكمى
وكاشف كل مشكلة ولبس وغامضة بلا حصر وعى

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ١ ص ٣٤٠ (طبع دار الكتب المصرية) .

ألباغى عليهم يوم فخر كأصلهم وفرعهم الزكي
ألساعى بهم نحو المثايا كقدرهم ومجدهم العلى
أتقدر ظلمة الليل الدياجي تغطى آية الصبح الجلى
ترى بعد الحسين يسوغ ماء ويحلو مورد العيش الهنى
وأية عيشة تحلو وتصفو وقد جار العدو على الولى
لقد ظلموا وما حازوا حقوقاً لفاطمة البتول ولا الوصى
بكم يا آل يس وطه تحط خطية الجانى المسى
ويحظى بالشفاعة كل عاصى ويسعد كل مجترم شقى
سلام الله والرضوان منه عليكم فى الغدو وفى العشى[1]

فهذه المعانى التى وردت فى هذه المقطوعة لا يمكن أن تصدر إلا من شاعر يعتنق التشيع له دينا ، فولايته لآل البيت ، وإسباغ الفضائل عليهم ، وشفاعته بهم ، وحزنه على الحسين بن على وعلى من قتل من العلويين ، كل هذه معانى شيعية خالصة لا ينشدها إلا شاعر شيعى ، ولكن العزازى فى هذه القصيدة وفى غيرها من قصائده الشيعية فى ديوانه لم يلم بالمعانى الفلسفية الشيعية التى كنا نراها عند شعراء الفاطميين ، بل اكتفى بإيراد المعاني الشيعية العامة التى يقول بهـا كل فرق الشيعة غير المتطرفة على اختلاف مذاهبهم ، ولذلك صار من الصعب علينا أن نتعرف الفرقة الشيعية التى كان ينتمى إليها العزازى .

وكذلك نقول عن الشاعر ابن شواق الاسنائى جلال الدين الحسن ابن منصور الذى وصفه الادفوى بقوله : رأيته وصحبته مدة ، وكان رئيس الذات والصفات ، حسن الأخلاق ، كريما فى نهاية المكرم ، حليما له فى الحلم علم ، وقد ذكرنا كيف صودرت أمواله لتشيعه وأنه رحل الى القاهرة فأجتمع بالصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين فأعجب هذا به وعرض عليه العمل فى ديوان الانشاء فرفض ، كان هذا الرجل يتشيع وكان تشيعه على النحو الذى كان عليه شيعة مصر قبل عصر الفاطميين أى حب الصحابة وتعظيمهم والاعتراف بفضلهم إلا أنه كان يقدم على بن أبى طالب عليهم[2] ،

(١) ديوان العزازى نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٧٩ أدب .
(٢) الطالع السعيد ص ١٠٨ وما بعدها .

ومع ذلك كان هذا المتشيع شاعرا وقد وصلتنا قصيدة له يمدح بها أهل البيت ويصفهم بصفات هى أقرب مايكون الى الصفات التى يذكرها علماء الشيعة الاسماعيلية عن الأئمة ، فهو يقول :

كيف لا يحلو غرامى وافتضاحى ... وأنا بين غبوق واصطباح
مع رشيق القد معسول اللمـا ... أسمر فاق على سمر الرماح
جوهرى الثغر ينحو عجباً ... رفع المرضى لتعليل الصحاح
نصب الهجر على تمييزه ... وابتدا بالصد جدّاً فى مزاح
فلهذا صار أمرى خبرا ... شاع فى الآفاق بالقول الصراح
يا أهيل الحى من نجد إعسى ... تجبروا قلب أسير من جراح
لم خفضتم حال صب جازم ... ماله نحو حماكم من براح
ليس يصغى قول واش سمعه ... فعلى ماذا سمعتم قول لاح
ومحوتم اسمه من وصلكم ... وهو فى رسم هواكم غير ماح
فلئن أفرطتموا فى هجره ... ورأيتم بُعده عين الصلاح
فهو راج لأولى آل العبا ... معدن الاحسان طراً والسماح
قلدوا أمرا عظيما شأنه ... فهو فى أعناقهم مثل الوشاح
أمناء الله فى السر الذى ... عجزت عن حمله أهل الصلاح
هم مصابيح الدجا عند السرى ... وهم أسد الشرى عند الكفاح
تشرق الأنوار فى ساحاتهم ... ضوءها يربو على ضوء الصباح
أهل بيت الله إذ طهره ... لجميع الرجس عنهم فى انتزاح
آل طه لو شرحنا فضلهم ... رجعت منا صدور فى انشراح
أنتم أعلى وأغلى قيمـة ... من قريضى وثنائى وامتداحى
جدكم أشرف من داس الحصا ... فى مقام وغدو ورواح
وأبوكم بعـــده خير الورى ... فارس الفرسان فى يوم الكفاح
وارث الهادى النبى المصطفى ... ما على من قال حقاً من جناح
لو يقاس الناس جمعاً بكم ... لرجحتم جمعهم كل رجاح
يا بنى الزهراء يرجو حسن ... بكم الخلد مع الحور الصباح

قد أتاكم بديع نظمه كجمان الدر فى جيد الرداح
فاسمعوا يا خير آل ذكركم ينعش الأرواح مع مر الرياح
وعليكم صلوات الله ما غشيت شمس الضحى كل الضواحى
وسرى ركب وغنى طائر ألف النوح بتكرار النواح[1]

فالشاعر فى هذه القصيدة ألم ببعض عقائد الشيعة ، فالأئمة قد قلدوا أمرا عظيما شأنه ، وهى مرتبة الامامة ، وأن الأئمة « أمناء الله فى السر » أى فى التعاليم الباطنية التى ائتمنوا عليها والتى عجز عنها غيرهم ، وضمن فى شعره الآية القرآنية « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا[2] » ، وهى الآية التى ذهب الشيعة على أنها أنزلت فى أهل البيت من نسل فاطمة بنت الرسول . ثم ذكر أن عليا وصى النبي ووريثه، وهى العقيدة التى يتمايز بها الشيعة بل هى أساس التشيع ، فهذه كلها معتقدات شيعية بها بعض التأثر بالمعتقدات الشيعية الاسماعيلية ، مما يدل على أن الشاعر قرأ كثيرا عن الشيعة وعقائدهم ، ودان بهذه العقائد ، وتوفى هذا الشاعر سنة ٧٠٦ هـ .

والشاعر الفقيه الشافعى محمد بن على بن منجى المتوفى سنة ٦٧٣ هـ لم يعرف عنه أنه تشيع ، بل اتجه فى أواخر أيامه إلى التصوف وبنى بأدفو رباطا ووقف عليه وقفاً[3]، كان متأثراً بآراء الشيعة ، ولا سيما فى عقيدتهم ، أن بولاية أهل البيت ينال العفو فى الآخرة ، ففى قصيدته التى أولها :

حاديها خلياها وسراها للحمى إن شئتما أن تسعداها

ختمها بقوله :

ولئن جرتم عليه فى الهوى وعدلتم نحو عذال عداها
فهو يرجو العفو يوم العرض عن ما جناه بولاه آل طه[4]

ولم تصلنا من أشعار هذا الفقيه الصوفى شيئا فى التشيع سوى هذا البيت الأخير وإنما أوردناه لنتدلل على أن أثر الشيعة كان قويا فى نفوس بعض المصريين .

(١) الطالع السعيد ص ١١٠ — ١١١
(٢) سورة الاحزاب آية ٣٣
(٣) الطالع السعيد ص ٣١٠
(٤) نفس المصدر ص ٣١٣

وقد ذكرنا أنه فى سنة ٦٩٧ هـ ظهرت حركة داود بن سليمان (ويقال ابن شعبان) بن العاضد، التى دعا فيها لنفسه، وأن الناس اجتمعوا حوله، ومدحه الشعراء بمقطوعات تظهر فيها أثر عقائد الفاطميين، من ذلك قول الشاعر ابرهيم بن محمد بن على بن نوفل الادفوى المتوفى سنة ٧٣٥ هـ فى مدح داود هذا:

ظهر النور عند رفع الحجاب ... فاستنار الوجود من كل باب
وأتانا البشير يخبر عنهم ... ناطقا عنهم بفصل الخطاب[1]

فالشاعر فى هذين البيتين مدح داود بهذه الصفات التى أسبغها شعراء العصر الفاطمى على الأئمة، متخذا المصطلحات الفاطمية الخالصة، «فظهور النور عند رفع الحجاب» هو ظهور الامام بعد استتاره، وفى البيت الثانى يشير إلى أن داعية الامام — الذى عبر عنه بالبشير — جاءهم بفصل الخطاب، وقد رأينا أن وظيفة الحجة فى الدعوة الاسماعيلية هى فصل الخطاب[2]. فالشاعر كان يتحدث إذن كما كان يتحدث شعراء الفاطميين بالرغم من مرور قرن ونصف تقريبا على زوال الدولة الفاطمية من مصر.

وعندما انتشرت دعوة داود هذا فى بلدته أسفون أنشد الشاعر الماجن الهجاء قطنبة الأسفونى — الحسين بن محمد بن هبة الله — مقطوعة شعبية فى هجاء هذه الدعوة وهجاء دعاتها فقال:

حديث جرى يامالك الرق واشتهر ... بأسفون مأوى كل من ضل أو كفر
لهم منهم داع كتيس معمم ... وحسبك من تيس تولى على بقر
ومن نحسهم لا أكثر الله منهم ... يسبوا أبا بكر ولم يشتموا عمر
فخذ مالهم لا تختش من مآلهم ... فان مآل الكافرين إلى سقر[3]

فمن هذه المقطوعة الشعبية التى أنشدها قطنبة نستطيع أن نعرف أن الدعوة انتشرت بقوة فى بلدة أسفون، وكان لها دعاة يأخذون العهود

(١) نفس المصدر ص ٣١
(٢) راجع ما كتبناه عن ذلك فى كتاب أدب مصر الفاطمية ص ٣١، وكتاب راحة العقل للكرمانى: المشرع السادس من السور الرابع (نشر الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمى، ص ١٣٦ وما بعدها).
(٣) الطالع السعيد ص ١١٧

والمواثيق ، وأنهم كانوا يسبون الصحابة على نحو ما كان يفعل الفاطميون . ويخيل إلىّ أن داود بن سليمان هذا ما هو إلا دعى وأنه أحد دعاة الاسماعيلية النزارية (الاسماعيلية الشرقية) فان من عقائد هذه الدعوة أن يتحمل الامام غرائض الدين عن المستجيبين وبذلك دعى داود هذا [1] ، ولذلك لم تجد الدعوة قبولا عند أكثر المسلمين ، وهجاه الشاعر علاء الدين الأسفونى على بن احمد بن الحسين المتوفى سنة ٧٣١ هـ فقال :

ارجع ستلقى بعدها أهوالا ... لا عشت تبلغ عندنا آمالا
يا من تجمع فيه كل نقيصة ... فلأضربن بسيرك الأمثالا
وزعمت أنك للتكلف حامل ... وكذا الحمار يحمل الأثقالا[2]

فلا غرابة إذن أن نرى هذه الدعوة التى هى أقرب إلى دعوة القرامطة القديمة قد فشلت فى مصر سريعا ، وأن تنفر من داود ومن الذين استجابوا له قلوب سواد المصريين ، ولذلك لم نعد نسمع عن محاولات أخرى فى مصر لإعادة الدعوة الفاطمية بعد محاولة داود هذا .

ومن الطرائف التى حدثت فى النزاع بين أهل السنة والشيعة فى هذا العصر ما سجله الشعر فيما كان يحدث فى عاشوراء ، ففى هذا اليوم من كل عام كان الشيعة يقيمون مأتم الحسين بن على جريا على السنة التى كان يتبعها الشيعة فى جميع البقاع الاسلامية ، وتقليدا لما كان متبعاً فى مصر الفاطمية ، وكان الشعراء ينشدون أشعارهم فى هذه المناسبة مثل ما أنشده العزازى فى قصيدته التى ذكرناها من قبل ، ومثل قول الشاعر شهاب الدين أبى العباس أحمد بن صالح وقد وقع مطر غزير في ذلك اليوم :

يوم عاشوراء جادت بالحيـا ... سحب تهطل بالدمع الهمول
عجبـا ! حتى السموات بكت ... رزء مولاى الحسين بن البتول[3]

(١) نفس المصدر ص ١٩٧

(٢) الطالع ص ١٩٧

(٣) الصفدى : الوافى بالوفيات الجزء الثانى من المجلد الثالث لوحة ٣٠٩ (نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية) .

ولكن أهل السنة أرادوا أن يكيدوا للشيعة فكانوا يخرجون فى هذا اليوم وقد كحلت أعينهم وخضبت أيديهم . وفى ذلك يقول الشاعر المصرى أبو الحسين الجزار :

وبعود عاشوراء يذكرنى رزء الحسين ، فليت لم يعد
يا ليت عيناً فيه قد كحلت لشماتة لم تخل من رمد
ويداً به لمسرة خضبت مقطوعة من زندها بيدى
أما وقد قتل الحسين به فأبو الحسين أحق بالكمد[1]

وأبو الحسين الجزار نفسه هو الذى داعب الشريف شهاب الدين ناظر الأهراء ، فكتب إلى الشريف ليلة عاشوراء عندما أخر عنه ما كان من جاريه :

قل لشهاب الدين ذى الفضل الندى والسيد بن السيد بن السيد
أقسم بالفرد العلى الصمد إن لم يبادر لنجاز موعدى
لأحضرن للهناء فى غد مكحل العينين مخضوب اليد[2]

فالشاعر بمداعبته هذه أعطانا صورة لما كان يجرى فى ذلك العصر بين المتعصبين من أصحاب المذهبين : المذهب السنى الذين كانوا يخرجون ليلة عاشوراء للهناء ، والمذهب الشيعى الذين كانو يخرجون للعزاء ، ويخيل إلى أن عادة المصريين الآن ولا سيما فى الأرياف بصنع أطباق الحلوى المعروفة باسم عاشوراء ، هى أثر من تراث هذا النزاع بين المذهبين فى عصر الأيوبيين والمماليك .

(٤) أثر الفاطميين فى شعر أهل السنة :

وإذا تركنا هؤلاء الشيعة الذين أظهروا تشيعهم فى أشعارهم ، وصوروا لنا لوناً من ألوان الفن المتأثر بهذا المذهب الدينى ، فاننا نواجه ناحية هامة عند شعراء هذا العصر الذى نتحدث عنه ، تلك الناحية هى تأثر الشعراء

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ج ١ ص ١٤٨
(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٨٥

بالآراء والصور التى تركها شعراء المدح فى عصر الفاطميين ، فنحن نعلم أن الفاطميين جعلوا للأئمة صفات خاصة أخذت من صميم عقيدتهم ومذهبهم [1] ، واستخدم جميع الشعراء الذين اتصلوا بالأئمة سبيل المدح بذكر هذه الصفات [2] ، واستمر هذا الضرب من المديح طوال عصر الفاطميين فى مصر ؛ وبالرغم من أن الدولة الفاطمية دالت على يد الأيوبيين ، وأن الدعوة الفاطمية اضمحل أمرها فلم يعد الدعاة يقومون بنشاطهم ، فأن الشعراء استمروا فى مديحهم فى نفس التيار الذى رأيناه عند الفاطميين ، بل خلعوا على سلاطين الأيوبيين نفس الصفات التى خلعها الفاطميون على أئمتهم ، بل غلا بعضهم فى المدح فنسب إلى السلاطين والخلفاء العباسيين ما لم ينسبه الفاطميون إلى أنفسهم ، فابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ مدح صلاح الدين بقوله :

أعدت إلى مصر سياسة يوسف وجددت فيها من سميك موسما
وأحييت فيها الدين بعد مماته فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريما
بقيت إلى أن تملك الأرض كلها ودمت إلى أن يرجع الكفر مسلما [3]

فاذا كنا نقبل أن تكون المقارنة بين صلاح الدين ونبى الله يوسف لتشابههما فى الاسم ، فاننا لا نقبل أن يكون صلاح الدين هو « ابن يعقوب » أو هو عيسى بن مريم لأنه أحيي الدين بعد مماته ، إلا إذا كنا نتمذهب بالعقيدة الفاطمية التى تؤول الآيات القرآنية التى ورت فى المسيح بأن إحياء الموتى هو نشر الدين وإحياء النفوس حياة صحيحة بالعبادة العلمية [4] ، أو نقول كما قال الفاطميون بالدور وانتقال النبوة والأئمة بالتسلسل

(١) راجع ما كتبناه عن ذلك فى مقدمة ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة (نشر دار الكاتب المصرى) .
(٢) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٤١ وما بعدها .
(٣) ديوان ابن سناء الملك (مخطوط رقم ٢٣٣٣١ بمكتبة جامعة فؤاد) .
(٤) المجالس المؤيدية ج ١ ص ١٤٧ (نسخة خطية بمكتبتى) .

والتعاقب ، وأن الخلف يرث دور السلف تمـاما ويحدث فى أيامه ما حدث فى أيام من سبقه ، فاذا بمحمد هو عيسى وهو موسى وهو نوح .. الخ [1].

فقول ابن سناء الملك « فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريمـا » هو أثر من آثار العقائد الفاطمية .

وفى قصيدة أخرى مدح هذا الشاعر صلاح الدين بقوله .

نصرت بأفلاك السماء فشبهها — خميس به يردى الخميس العرمرما
رقيت إلى أن لم تجد لك مرتقى — وأقدمت حتى لم تجد متقـدما
فمـا يبرم المقدار ما كنت ناقضا — وما ينقض المقدار ما كنت مبرما [2]

ففى البيت الأول يتحدث عن « أفلاك السماء » التى نصرت السلطان ، وأفلاك السماء فى التأويل الفاطمى يعنى الملائكة ، وهم العقول فى الاصطلاحات الفلسفية والاسماعيلية أيضاً [3]، وفى البيت الثانى دفع الشاعر شدة المبالغة والغلو في المديح إلى أن جعل صلاح الدين فى مرتبة ليس فوقها مرتبة ، وهذا المعنى كثير جداً فى شعر العصر الفاطمى لأن الامام مثل للمبدع الأول الذى ليست فوقه مرتبة [4] ، والبيت الثالث نفس معنى بيت ابن هانىء الأندلسى فى مدح المعز لدين الله الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار — فاحكم فأنت الواحد القهار

ثم اقرأ لابن سناء الملك أيضا قوله فى مدح على الشهيد نور الدين زنكي :

مولى الأنام (على) هكذا نقلت — لنا الرواة حديثا غير مختلق [5]

فالشاعر هنا نقل الحديث النبوى « من كنت مولاه فعلى مولاه » الذى قيل فى على بن أبى طالب الى على الشهيد نور الدين ، وتبع سنة شعراء الفاطميين الذين مدحوا الأئمة بأنهم موالى الأنام .

(١) راجع ديوان المؤيد فى الدين ص ١٣٥ وما بعدها .
(٢) ديوان ابن سناء الملك .
(٣) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢١٧
(٤) نفس المرجع ج ١ ص ١٠٩
(٥) ديوان ابن سناء الملك .

ومرة أخرى يمدح صلاح الدين بقوله :

قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً وحويت الآفاق سهلاً وحزناً
واغتدى الوصف عن علاك حسيراً أى لفظ يقال أو أى معنى
ورأينا ربنا قال : أطيعوه سمعنا لربنا وأطعنا[1]

وشعراء الفاطميون كانوا يضمنون في أشعارهم الآية القرآنية : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . وقال الدعاة إن هذه الآية أنزلت فى على بن أبى طالب . فأخذ ابن سناء الملك هذا المعنى وأودعه شعره . ولم يجعلها فى الأئمة من أهل بيت على بن أبى طالب إنما جعلها فى صلاح الدين .

ولم يكتف ابن سناء الملك بأن يتأثر بهذه العقائد الفاطمية ويتبع تيار الشعر الفاطمى فى مدحه لصلاح الدين الأيوبى أو نور الدين زنكى ، بل نراه فى مدائحه للقاضى الفاضل يأتى بالمعانى التى كانت تقال للأئمة الفاطميين ولها من عقائدهم سند ، أما أن تقال للقاضى الفاضل فهذا هو الأثر القوى على شعر ابن سناء الملك ، فنحن نعلم أن الفاطميين وصفوا الأئمة بأنهم رحمة للعالمين[2] ، فجاء ابن سناء الملك وقال للقاضى الفاضل :

عبد الرحيم على البرية رحمة أمنت بصحبتها حلول عقابها[3]

وقال الفاطميون إن قصر الامام هو فى العبادة العلمية (التأويل الباطن) هو الكعبة وأن الحج الباطن هو زيارة الإمام[4] . فقال ابن سناء الملك للقاضى الفاضل :

ياكعبة طاف الملوك بها بل قبلة حج الأنام لها[5]

وهكذا نستطيع بسهولة أن نتتبع أثر العقائد الفاطمية فى شعر ابن سناء الملك وهو من شعراء الدولة الأيوبية ومن كبار رجالاتها .

(١) نفس المرجع .
(٢) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٢٠٢
(٣) ديوان ابن سناء الملك .
(٤) القاضى النعمان : تأويل دعائم الاسلام ج ٢ ورقة ٦١ (أ) نسخة فتوغرافية بمكتبة جامعة فؤاد .
(٥) ديوان ابن سناء الملك .

هاهو الشاعر الدمشقي ابن الساعاتي الذي وفد على مصر واتخذها دار إقامته ، نراه قد تأثر بما كان في مصر والشام من عقائد الفاطميين ، ونهج نهج شعراء المدح في العصر الفاطمي ، فنراه يمدح الخليفة العباسي الناصر لدين الله بما كان يمدح به الأئمة فهو يقول مثلا :

فروع إلى العباس تنمى أصولها ... وما خير فرع أسلمته أصول
هو النسب الزاكي أناف بفضله ... «وصى» حوى سبق العلا ورسول
ترى اليوم طلقاحين يذكر «جعفر» ... ويسمى إليه حمزة وعقيل
له شرف البيت العتيق وزمزم ... وما ساقه حاد إليه عجول
وفضل الذبيحين الذي ما لفضله ... نظير ، وهل للنيرين عديل
علاه على السبع الشداد محله ... ومجد قديم لا يرام أثيل
ففي كل يوم للملائكة العلى ... طواف على أبياتكم ونزول[1]

فهو يمدح الخليفة العباسي بأنه ينتسب إلى الرسول والوصي علي ابن أبي طالب وجعفر بن أبي طالب وعقيل بن أبي طالب وحمزة ابن عبد المطلب ، وهذا مدح شيعي خالص ، لا يمدح به إلا الأئمة من نسل علي بن أبي طالب . وفي البيت الرابع معنى من المعاني الفاطمية التي تؤول شعائر الحج على أنهم الأئمة وقد شرفهم الله تعالى بذلك[2] . وفي البيت السادس يضمن عقيدة باطنية خالصة بأن جعل الخليفة العباسي فوق السبع الشداد أي في منزلة المبدع الأول (العقل الأول أو القلم) وقد ذكرنا أن هذا المعنى لا يمدح به إلا إمام اسماعيلي على نحو ما أوردناه في نظريتنا التي أطلقنا عليها (نظرية المثل والممثول) لأن الامام في العالم الجسماني مثل العقل الأول الروحاني. ولكن ابن الساعاتي أتى بهذا المعنى غلواً منه ومبالغة وتأثراً بما كان في العصر الفاطمي . وفي البيت الأخير جعل الملائكة يطوفون ببيوت العباسيين ، وهو معنى لم ينشد إلا في بلاط الخليفة الفاطمي ، فان الفاطميين أولوا الملائكة

(١) ديوان ابن الساعاتي ج ١ ص ٥٣ (طبع دمشق) .
(٢) القاضي النعمان : تأويل دعائم الاسلام ج ٢ ورقة ٦١ (فتوغرافية وكتاب المجالس المستنصرية ص ٧٥ — ٧٨ (نشر محمد كامل حسين) .

وطوافهم ببيت الإمام على الدعاة والحجج الذين يزورون الإمام ويتجهون إليه لأنه قبلة نفوسهم. وهكذا نرى شاعراً آخر من شعراء الأيوبيين يتأثر بالشعراء الفاطميين.

أما الشاعر ابن النبيه المصرى المتوفى سنة ٦١٩ هـ فقد كان أجرأ شعراء مصر في الأخذ من عقائد الفاطميين ، وكان أشدهم مبالغة فى مدحه للخليفة الناصر العباسى حتى إن القدماء أنفسهم عابوا عليه هذه المبالغة واتهموه فى دينه، ولابن النبيه عذره ، فقد وجد فى عصر كانت عقائد الفاطميين لا تزال ماثلة فى أذهان الناس ، وكان شعر شعراء الفاطميين لا يزال يروى بين الناس ، فسار ابن النبيه فى تيار هؤلاء الشعراء وخيل له أنه يمدح إمام الفاطميين لا الإمام العباسى عدو الفاطميين ، بالرغم من أن الإمام الناصر العباسى نفسه كان متشيعاً .

فانظر إلى ابن النبيه فى إحدى قصائده فى مدح الخليفة الناصر يقول :

بغداد مكتنا ، وأحمد « أحمد »	حجوا إلى تلك المنازل واسجدوا
يا مذنبين ، بها ضعوا أوزاركم	وتطهروا بترابها وتهجدوا
فهناك من جسد النبوة بضعة	بالوحى جبريل لها يتردد
« باب النجاة » « مدينة العلم » التى	ما زال كوكب هديها يتوقد
ما بين سدرته وسدة دسته	نبأ يقر له الكفور الملحد
هذا هو السر الذى بهر الورى	من ظهر آدم والملائك سجد
هذا « الصراط المستقيم » حقيقة	من زل عنه فنى الجحيم يقيد
هذا الذى يسقى العطاش بكفه	والحوض ممتنع الحمى لا يورد
« القائم المهدى » أنت بقيت للاسـ	ـلام تمهد تارة وتشيد
بعداً « لمنتظر » سواه ، وقد بدت	منه البراهين التى لا تجحد
إن كان فوق الطور ناجى ربه	موسى ، فبالمعراج أنتم أزيد
أو كان يوسف عبر الرؤيا ، فكم	للغيب منكم مصدر أو مورد
الله أنزل وحيه لمحمد	وإليكم وصى بذاك محمد
الدهر فى يده لجور مرسل	سبط وبأس مكفهر أجمد

يا من لمبغضه الجحيم قرارة ولمن يواليه النعيم السرمد
لولا التقية كنت أول معشر غالوا فقالوا : أنت رب يعبد[1]

هذا ما أنشده ابن النبيه فى الخليفة العباسى. وواضح كل الوضوح مدى غلو هذا الشاعر فى مدحه ، هذا الغلو الذى لا أكاد أجد له مثيلا بين شعراء الفاطميين أنفسهم على ماوصفوا به أئمتهم من صفات ، وأسبغوا عليهم من نعوت ، ولكن شعراء الفاطميين أتوا بهذه الصفات والنعوت من العقيدة الفاطمية نفسها ، ومن التأويلات الباطنية التى تمايز بها الفاطميون ولم يقرهم عليها فرقة من فرق المسلمين ، أما ابن النبيه وهو شاعر سنى فى دولة أطاحت بالدولة الشيعية وحاولت أن تمحو من البلاد العقيدة الشيعية ، وكان يمدح الخليفة العباسى ، ثم يغلو هذا الغلو فى المدح ، فهذا هو الشىء الذى لم نكن نتوقعه فى شعر المدح فى مصر فى عصر الأيوبيين . والذين لهم إلمام بالعقائد الفاطمية يستطيعون فى سهولة ويسر أن يدركوا تأثر هذا الشاعر بالفاطميين ، فالشطر الأول من البيت الأول هو نفسه رأى الفاطميين فى عقيدة الأدوار التى تحدثنا عنها من قبل ، والحج فى الشطر الثانى من البيت الأول وكل البيت الثانى هو نفسه رأى الفاطميين فى الحج الباطنى .

وعجيب أن يذهب الشاعر إلى أن الخليفة العباسى الناصر بضعة من جسد الرسول، لأنه ليس من نسل الرسول ، والحديث النبوى يقول : «فاطمة بضعة منى» ولكن مبالغة الشاعر وغلوه فى المدح جعل الخليفة الناصر من أبناء فاطمة — مثله فى ذلك مثل أئمة الشيعة — .

ومثل ذلك قوله فى قصيدة أخرى :

أهل بيت قد أذهب الله عنهم كل رجس وطهروا تطهيراً

وكذلك قوله «مدينة العلم» التى جعلها النبى لنفسه دون سواه فقال «أنا مدينة العلم وعلى بابها» وشعراء الشيعة لم يذهبوا الى أن علياً أو أحد

(١) ديوان ابن النبيه ص ٣ (طبع المطبعة العامية بمصر سنة ١٣١٣ هـ) .

أبنائه « مدينة العلم » ولكن هذا الشاعر السنى أبي إلا أن يجعل الخليفة الناصر فى مقام النبي نفسه .

أما قوله : « باب النجاة » فهو من أقوال شعراء الفاطميين وكذلك قوله بعد ذلك إن الناصر هو « الصراط المستقيم » فهذا تأويل باطنى خالص لا يقول به إلا شاعر اسماعيلى فى مدح إمام اسماعيلى [1] ، أما فى قوله : هذا هو السر الذى بهر الورى . . . البيت ، فهو نفس ما قاله الفاطميون عن مرتبة الاستيداع ، (النبوة) ومرتبة الاستقرار (الامامة) وتنقلهما منذ خلق آدم هذا الدور [2]. وهى نفس النظرية التى اعتنقها الصوفية فى هذا العصر وهى نظرية « النور المحمدى » . ويظهر تأثر ابن النبيه بالمصطلحات والعقائد الفاطمية تأثراً واضحاً فى وصفه للخليفة العباسى بأنه « القائم المهدى » فقوله هذا أخذ أخذاً من أقوال الفاطميين وهو اصطلاح من مصطلحاتهم الخاصة الذى تمايزوا به عن الفرق الأخرى فى وصف « المهدى المنتظر » الذى هو عند الفاطميين آخر دور آدم الحالى « وخاتم السبع المثانى » ، وهو عند الفاطميين الناطق السابع وآخر النطقاء ، فاذا كان الفاطميون قد انحرفوا عن الدين القويم بأن جعلوا نبياً بعد محمد (ص) فان أسفنا أشد حين نجد شاعراً يتمذهب بمذهب أهل السنة والجماعة يصف خليفة عباسياً بهذه الصفة الفاطمية . وإذا كان أهل السنة يرون أن النبي (ص) قبض ولم يوص لأحد بعده ، خلافا لقول الشيعة الذين ذهبوا إلى أن النبي أوصى لعلى يوم « غدير خم » فان الشاعر هنا جعل وصية محمد للعباسيين وهو قول لم نسمع به إلا من شعراء مصر فى عصر الأيوبيين .

ومن الصفات التى خلعها الفاطميون على على بن أبى طالب أنه « قسيم الجنة والنار » أى أنه يقسم الناس بين الجنة والنار ، فمبغضه فى النار ووليه فى الجنة .

(١) ديوان المؤيد فى الدين ص ٨٧ والمجالس المؤيدية ج ١ ص ١٤٧
(٢) ديوان المؤيد ص ٨٠ وما بعدها

وفى ذلك قال المؤيد فى الدين يمدح الامام المستنصر الفاطمي :

بمولانا الامام أبي تميم هديت إلى الصراط المستقيم
قسيم النار مولانا معد وجنات العلى وابن القسيم

فجاء ابن النبيه وجعل هذه الصفة للعباسيين ، ويختم ابن النبيه هذه القصيدة بقوله لولا تقاه لبلغ به غلوه إلى تأليه الخليفة العباسى ، بينما لم يذهب إلى تأليه الأئمة الفاطميين سوى الثلاثة الذين طردوا من حظيرة الدعوة الفاطمية ومن هؤلاء دعاة الحاكم ولم يذهب شاعر من شعراء الفاطميين إلى القول بهذه الدعوى فنرى المؤيد فى الدين مثلا يقول لامامه :

لست دون المسيح سماه ربا أهل شرك ولا نسميك ربا

وفى قصيدة أخرى لابن النبيه فى مدح الخليفة العباسى الناصر لدين الله أيضاً يقول :

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله لكنه ربما مجت أواخره
واجسر على فرص اللذات محتقرا عظيم ذنبك إن الله غافره
فليس يخذل فى يوم الحساب فتى و«الناصر» ابن رسول الله ناصره
تجسد الحق فى أثناء بردته وتوجت باسمه العالى منابره
له على ستر سر الغيب مطلع فما موارده إلا مصادره
يقضى بتفضيله سادات عترته لو كان «صادقه» حيا « وباقره »
كل الصلاة خداج لا تمام لها إذا تقضت ولم يذكره ذاكره
كل الكلام قصير عن مناقبه إلا إذا نظم القرآن شاعره
رأيت ملكا كبيرا فوق سدته جبريل داعيه أو ميكال زائره[1]

فابن النبيه فى هذه الأبيات يرى أن الخليفة الناصر من نسل رسول الله ، وهو نفس الرأى الذى قاله من قبل فى قصيدته السابقة :

فهناك من جسد النبوة بضعة بالوحى جبريل لها يتردد

(١) ديوان ابن النبيه ص ٧

فاذا كانت هذه هي نظرة ابن النبيه إلى الخليفة العباسي فلا غرو أن نراه يصف هذا الخليفة بالصفات التي قالها الشيعة عن أئمتهم ، فهو إذن الشفيع يوم القيامة ، ويكرر هذا المعنى في قصيدة أخرى فيقول :

مولاي أمنت من سيئاتي   يوم ألقى كتابي منشورا

بل يذهب في الغلو إلى مدى أبعد مما ذهب إليه شعراء العصر الفاطمي إذ نسب إلى الخليفة العباسي معرفة الغيب ، وكرر هذا المعنى فذكره في هذه القصيدة وفي القصيدة السابقة ، فبينما طعن علماء أهل السنة أئمة الفاطميين بأنهم يدعون معرفة الغيب وتبرأ الفاطميون من هذه المقالة وممن قال بها (١) ، نرى ابن النبيه يلصقها بالخليفة العباسي ، ويذهب ابن النبيه إلى أن أئمة الشيعة ، وخاصة جعفر الصادق ، ومحمد الباقر بن علي زين العابدين ، لو كانوا أحياء لقدموا الناصر العباسي عليهم ، ونلاحظ أنه خص جعفر الصادق والباقر دون غيرهما أولا للضرورة الشعرية في القافية الرائية ، وثانياً لأن جل علوم الشيعة إنما رويت عن طريقهما . ثم يعود ابن النبيه إلى عقيدة الفاطميين التي تذهب إلى أن الصلاة لا تقبل ما لم يصل على الأئمة ، فالشاعر هنا أخذ هذه العقيدة ونظمها مستعملا ألفاظ الفقهاء فزعم أن الصلاة خداج إن لم يكن بها الصلاة على الناصر ، فاذا كان الشيعة يقولون ذلك بناء على عقائدهم فنحن لا ندري على أي أساس قال ابن النبيه ذلك إلا إذا اعتبر الخليفة العباسي من أئمة الشيعة ، وكرر ابن النبيه هذا المعنى في قصائد أخرى في ذلك قوله :

أنت يا بن النبي حبت صلاة   لم تكن في خلالها مذكورا

ونحن نعلم أن الشيعة ذهبوا إلى أن في القرآن الكريم عدداً من الآيات أنزلت في أهل البيت (٢) ، وعدوا ذلك من فضائل أئمتهم ومن مناقبهم ، وها هو ابن النبيه يمدح الناصر بهذا المعنى الشيعي ، وختم الشاعر هذه القصيدة بأن الناصر ملك كبير وأن جبريل داعيته وأن ميكائيل زائره ، وهذه

(١) النعمان بن محمد : المجالس والمسايرات ورقة ٨٩ (نسخة خطية بمكتبتي) .

(٢) في أدب مصر الفاطمية ص ٦ والمجالس المؤيدية ج ١ ص ١٠٩ ، وبحار الأنوار ج ٧ ص ٢ والمجالس المستنصرية في مواضع متفرقة . ديوان المؤيد في الدين ج ٧٤ وما بعدها .

من المعاني الباطنية الاسماعيلية التي لم يقل بها سوى الاسماعيلية وذلك أن تأويل الملائكة على الدعاة والحجج ، وفي ذلك يقول المؤيد في الدين داعي الفاطميين :

أنا آدمي في الرواء حقيقتي ملك تبين ذاك للمسترشد

فأخذ ابن النبيه هذه العقيدة الباطنية ونظمها في شعره وجعلها في الخليفة الناصر العباسي . من هذه الأمثلة التي أوردناها من شعر ابن النبيه . ومن أشعاره الأخرى التي جمعها ديوانه نستطيع أن نلمس مدى تأثر هذا الشاعر بالتعاليم الشيعية عامة والفاطمية منها على وجه الخصوص .

ولم يكن ابن النبيه هو الشاعر الوحيد الذي نرى في شعره أثر هذه التعاليم فهاهو زميله ابن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ يتأثر بما تأثر به ابن سناء الملك وابن الساعاتي وابن النبيه وغيرهم من شعراء ذلك العصر من تعاليم شيعية ومن تراث الفاطميين ، ففي مديحه للخليفة المستنصر بالله العباسي خلع عليه صفات الامام الفاطمي فهو يقول :

الله أكبر أي طرف يطمح أم أي ذي لسن يقول فيفصح
حرم الخلافة والإمام إمامنا فمن العجائب أن لفظاً ينجح
عظم المقام عن المقال فحسبنا أنا نقدس عنــده ونسبح
شرفا بني العبـاس ما أبقيتم فخراً لمفتخر به يستنجح
من معشر جبريل من خدامهم وبمثـل ذا يتمدح المتمدح
لما سموا سمحوا فحدث صادقا عن أنفس تسمو وأيد تسمح
فوق السماء خيامهم مضروبة فلخيلهم مسرى هناك ومسرح
حيث النجوم تعد من حصبائها والبرق منهـا بالسنابك يقدح
أخليفة الله الرضى ، هل لى إلى بحبوحة الفردوس باب يفتح
حتى أطوف بذلك الحرم الذى ما فاز إلا من به يتمسح
وأجيل فى ملكوت قدسك ناظراً ما زال يعبق بالنسيم ويصبح
وأقبل الأرض المقدسة التى أرج السعادة من ثراها ينفح
هذا الذى نزل الكتاب بمدحه فبأى شيء بعــد ذلك يمدح

هذا نذير النفخة الأخرى الذى | من لا يدين بحبـه لا يفلح
إن الخلافة لم تكن إلا لكم | من آدم وهلم جرا تصلح[1]

فابن مطروح فى هذه الأبيات التى يمدح فيها الخليفة العباسى لا يجارى شعراء العباسيين فى مدائحهم ، إنما هو يجارى شعراء الشيعة فى مدح أئمتهم ، وينهج نهج شعراء الفاطميين خاصة الذين أسبغوا على الأئمة لوناً من التقديس ، ورفعوا مرتبة الأئمة فوق السموات العلى ، وجعلوا بيد الأئمة دخول الجنة أو النار ، وذهبوا إلى أن بالقرآن الكريم آيات وردت فى الأئمة دون غيرهم وأن من لايدين بحب الامام ويتولاه فهو بعيد عن زمرة المؤمنين ، وأن الامام هو نذير النفخة الكبرى ، وأن الامامة تنقلت من آدم إلى أن استقرت فى إمام العصر . فهذه كلها من المعانى الشيعية التى لم يمدح بها إلا أئمة الشيعة ، ولم نسمع أن شاعراً من شعراء الأمويين أو العباسيين مدح خلفاء الأمويين والعباسيين بمثل هذه المعانى إلا فى هذا العصر المتأثر بالتقاليد الشيعية الفاطمية .

فاذا اغتفرنا لابن مطروح أن يصف الخليفة العباسى بمثل هذه المعانى الشيعية لأن المستنصر بالله كان إمام المسلمين وخليفة رب العالمين ، ويمت إلى النبى (ص) بصلة القرابة القريبة ، فغلا الشاعر فى مدحه غلو الشيعة فى مدح أئمتهم .

فما عذر ابن مطروح فى مدائحه للملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل الأيوبى الذى لا يمت الى الخلافة بصلة ولا ينتسب الى النبى صلوات الله عليه بسبب ؟ فى قول ابن مطروح فى الملك الكامل :

« قدست » من ملك عظيم الشان | متتابع الحسنات والاحسان
تتزاحم التيجان فى أبوابه | عند السلام ، ولابسوا التيجان
حتى إذا بصرت به أبصارهم | خروا لهيبته الى الأذقان
أفذانوا كب كالكواكب والتحق | « بشريف ذاك العالم الروحانى »
ألقى مقاليد الممالك عنوة | لك حسن تدبير وثبت جنان

[1] ديوان ابن مطروح (طبع الجوائب سنة ١٢٩٨ هـ) .

وتشوف الأملاك لاسمك كلما ... ذكروا سميك عند كل أذان
أما وقد علقت يدي « بمحمد » ... وظفرت منه « ببيعة الرضوان »
أنا فيك «حسان» وأنت «محمد» ... « بمحمد » عطفا على « حسان »[1]

فما معنى تقديس هذا الملك ؟ وما الذي صبغ عليه هذه القدسية . وما الذي جعل للملك الكامل الأيوبي شرف الانتساب إلى العالم الروحاني ؟ وما هذه البيعة التي وصفتها بأنها « بيعة الرضوان » هذه كلها مسائل نرجعها جميعها إلى مبالغة الشاعر في مدحه وهي المبالغة التي ورثها شعراء عصره عن شعراء الفاطميين ، وإذا كان ابن مطروح هنا قد أساء في مبالغته لأنه مدح الملك الأيوبي بصفات دينية ليس بينه وبينها سبب ، لكنه سار على سنة شعراء الفاطميين وجرى في تيارهم متأثرا بهم . ومثل هذا قوله في مدح الملك الأشرف مظفر الدين أبي الفتح موسى :

الأشرف الملك الكريم المجتبي ... موسى وثم بالرحيم المصطفى
يا أيها الملك الذى من فاته ... نظر اليك فما أراه بمؤمن
والسبعة الأفلاك ما حركاتها ... إلا مخافة أن تقول لها اسكني[2]

فالشاعر هنا جعل النظر الى الملك الأشرف لوناً من ألوان العبادة !! ؟ وأن الأفلاك تسير بأمره !! وهي صفات خلعها عليه الشاعر مبالغة وغلوا ، بينما هي صفات شيعية هي من صميم عقائد الشيعة في الامامة ، فاذا قيلت هذه الصفات في الملك الأشرف أو في غيره من ملوك الأيوبيين أو سلاطين المماليك فهي السخف بعينه لأنها لا تقوم على أساس مذهبي أو عقيدة دينية ولكنها المبالغة والتقليد لما كان يجرى في العصر الفاطمى في مصر . فبالرغم من أن الأيوبيين في مصر عملوا على محو التشيع ، ونجحوا سياسيا في تقويض أركان دولة الفواطم فانهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا من عقول المصريين هذه الآراء الشيعية أو أن يمحوها محوا تاما ، فقد رأينا من تلك الأمثلة التي أوردناها من الشعر كيف كان تأثير

(١) ديوان ابن مطروح ص ١٧٥ — ١٧٦
(٢) ديوان ابن مطروح ص ١٧٧

عقيدة الشيعة عظيما فى هؤلاء الشعراء حتى خيل لينا أننا أمام شعراء من الشيعة يمدحون أئمة الشيعة .

على أننا نستطيع أن نقول إنه بالرغم من ذلك كله فأن التشيع ضعف فى مصر شيئاً فشيئاً ، حتى كاد يمحى منها وأصبحت مصر فى القرن العاشر الهجرى وما بعده تدين بمذهب أهل السنة والجماعة ، ولم يكن ذلك عن طريق السيف والارهاب فحسب بل كان هنالك سبب أقوى من الارهاب والسيف ، وهو نشر العلم فى مصر .

انتشر المذهب الفاطمى بمصر على يد عدد من الدعاة ، واهتم الفاطميون بالدعاة اهتماما عظيما فوضعوا للدعاية أسساً وللدعاة شروطا (١) فانبث الدعاة بين الناس يكالبون أصحاب الفرق الأخرى ويحتجون عليهم ويبطلون آراءهم ، وأوهموا الناس أن الحق فيما يقوله الدعاة عن الأئمة ، وما زالوا بالناس حتى أقبل على دعوتهم عدد كبير اعتنقوا المذهب رغبة أو رهبة : فشغلت عقائد الفاطميين أذهان الناس طوال العصر الفاطمى ، وجاء عصر الدولة الأيوبية فأراد القائمون عليها أن يغيروا عقائد الشيعة فى مصر ، ورأوا أن الفاطميين نشروا مذهبهم عن طريق العلم ، فحاربوا التشيع بنفس السلاح الذى استخدمه الفاطميون ، وهو الدعوة الى أهل السنة والجماعة عن طريق فتح المدارس السنية أولا ، وتشجيع حركة التصوف ثانيا ، وتشجيع المدائح النبوية ثالثا .

(١) أدب مصر الفاطمية ص ١٩